بيان خطأ بعض الناس في نسبته بعض الأقوال لأهل العلم وقت الفتن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فهذه خاطرة دعاني لكتابتها خطأُ بعضِ الناس في نسبةِ أقوالٍ لأهل العلم دون مراعاةٍ للسياقات والأحوال التي وردت فيها تلك الأقوال، فأقول وبالله التوفيق:

من النسب الخاطئة للشيوخ أن يأتي لكلام شيخ خرج في ظرف معين، دعته له الطبيعة البشرية التي لا ينفك عنها الإنسان ثم يجعل ذلك قولا للشيخ أو منهجا له .!

فبعض الظروف تملي على العالم بما لا يعتقده ولا يرتضيه في الأحوال العادية، فيتلقف ذلك كل مفتون فيجعله تفريعا جديداً للشيخ .!

فانظر مثلاً: عدم طاعة الصحابة ﷺ للنبي ﷺ لما أمرهم أن يحلقوا رؤسهم في صلح الحديبية، فهم في ظرف عصيب كانوا على أشراف مكة، ويتشوفون للحج، ثم يرجعون دون أن يروا مكة .!

فلا يقول قائل: هناك حالات يجوز أن نُرادِد النبي ﷺ وأن نُحاجِجَه؛ لفعل عمر رضي الله عنه ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم .!

فهناك ظروفٌ تطغي فيها الجبلة البشرية إما من الرحمة أو الغضب أو الاستعجال أو غيرها، مع علمهم أن ذلك في الحقيقة مخالفٌ للشرع، ولكن هكذا تُملي الظروف أحياناً، مع صحة نيتهم وديانتهم، حتى قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : أَعْلَمُ الناس وأتقاهم قد يخالف النص الصريح ديانة لله .!

ومع ذلك ليس هو على حق، وليس فعله صواباً، فلا يجوز أن يُتَّخَذ ذلك الفعل -سواء كان قولا أو عملا- دِيناً يُنسب لهذا الرجل، ونحتج به، وندفع به منهجه الذي عاش عليه سنينا عديدة تقريرا وتحريرا وشرحا وعملا وقولا .! وكذا لا يجعلُ عيبا يعاب به .! وانما تجعل على رَفِّ ما تتغلب به الطبيعة البشرية أحياناً.

وكحمية سعد بن عبادة رضي الله عنه لرأس المنافقين لما انتصر له، فلا يُتخذ ذلك منهجا للعصبية القبلية.

ومثله: ما حدث للقُرَّاء لما خرجوا على عبد الملك، لا تجد أحدا منهم صرح بجواز الخروج، وإنما كانت فتناً تدفعُ الناس دفعاً حتى تسلِب عقول الرجال، وإنما فعلوا ذلك تحت هذا الظرف، حتى قال أيوب السختياني رحمه الله: ما من أحد منهم خرج إلا ندم .! فهم كانوا يعلمون حقيقة المخالفة لكن تصبروا ورجوا ، فأخلف الله ظنهم ورجاءهم، ولله حِكَمٌ لا تبلغها العقول، حتى الشعبي رحمه الله اعترف وقال: لم نكن بأتقياء في خروجنا .

ولذلك كان كثيرٌ من العلماء يقولون: اقتدوا بأقوالنا ولا تقتدوا بأفعالنا .!

وكما ذكر ابن تيمية: لا تنظر إلى عمل العالم ولكن سَلْه يصدقك.

وإذا أردت أن يتبين لك ذلك، فاعرض عمل ذاك العالم على منهجه طيلة عمره، فإنك سوف تجد منهجه مخالفاً لفعله ذلك، مع وجود الـمُقْتَضِي.

فالصحابة رضي الله عنهم لو استعرضت مناهجهم طيلة حياتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم لوجدتهم دائماً مسارعين لطاعته دون تَرَدُّدٍ أو محاججة للنبي صلى الله عليه وسلم، فلا يُعارض هذا المنهج الدائم المستمر بذلك الفعل الجبلي البشري فلا يُتّخذ ذريعةً لأُمورٍ باطلة، ولا يُجعل عيباً يَلحق صاحبَه.

كمن يأتي لشيخ أفنى عمرَه في تقرير السمع والطاعة لولاة الأمر، وعدم التعرض للحكام، وعدم الدخول في السياسة أو ما يثير الفتن ويهيج الشعوب على حكامها، وتجده دائماً يُقرر عدم التعرض لشخصيتين اثنتين: العلماء والحكام، ويربي طلابه على ذلك، هذا هو منهجه طيلة عمره ، ثم نجده في ظرف معين خرج عن هذا المألوف من منهجه إما لرؤيته مناظر بشعة أو وَصَلَته أخبار يندى لها الجبين بما يفعله الكفار مع الأطفال والنساء، فقال كلمته تلك تحت هذا الظرف، فلا تُجعل دِينا يُتَذَرّع به، فيُفَرّع على ذلك فرعا جديدا في الطعن في الحكام!! فإن هذا جناية على العلم وأهله، ولو فعلنا ذلك لما استقام لنا أصل ، وأيضاً: لا يُجعل هذا الفعل عيبا يُعاب به العالِم.

واسأل نفسك: لو أنك أتيت لهذا الشيخ وقلت له: يا شيخ هل يجوز أن نغرد وننشر في الملأ أن الحكام خذلوا المسلمين وأنهم لا يَهُمُّهم إلا الكراسي؟ فوالله الذي أحلف به أنه سوف يقول لك: لااااا.

فلماذا تترك الأمر البين الواضح وتتعلق ببنيات الطريق؟!!

وأيضا: من الأخطاء والجنايات على العلم وأهله -وهي كثيرة- : أن يجد الشخصُ قولاً لعالم خالف فيه منهجه المتقرر المعروف عنه لمصلحة يرجوها احتُمِلت هذه المخالفة لرجاء حصول المصلحة الكبرى، وإنما فعل ذلك لما له من مكانة عظيمة ليس في دولته فقط وإنما في العالَم أجمع، وله تقدير واعتبار حتى عند الحكام، فالمرجو - والحال هذه- حصول الخير بهذا الكلام ولو كان فيه نوع مخالفة.

فيتلقف ذلك الفعل طالب علم، لا مكانة له ولا اعتبار، وقد غاب عنه منطلق العالم الذي كان يعتقده ويدين الله به، ثم يتذرع بفعل الشيخ، وهذا خطأ فإن الشيخ إنما أجاز لنفسه ذلك ليس لأنه لا يرى فيها نوع مخالفة وإنما رأى أن تلك المخالفة تربو عليها تلك المصلحة.

فالشيخ ينطلق من قاعدة دفع أعلى المفسدتين، وطالب العلم هذا ينطلق من جواز الفعل من أصله.! فاتفقوا نعم في الفعل واختلفوا في المنطلق.

وهذا يذكرني بمن كان يحضر الحفلات التي فيها طبول، ولما قيل له في ذلك، استدل بأن العالم الفلاني حضر مرة حفل الجنادرية ؟!

مرة واحدة طلع الشيخ في ظرف معين ربما أراد مصلحة كبرى والشيخ لا ينفي نوع المخالفة هذه .!

بل إن الشيخ سئل عن ذلك. فقال: كنت أرجوا مصلحة أعظم .!

ومن جنس ما تقدم ما ذكره ابن تيمية أن من اقتدى بالنبيﷺ استحبابا في أفعاله العادية فهو في الحقيقة لم يوافقه، وإنما خالفه؛ لأن المنطلق مختلف، فالنبي ﷺ فعله بنية المباح، وهذا فعله بنية الاستحباب.

ومن الأخطاء أيضاً: تجد طالب علم يبحث ويفتش حتى يجد فعلا أو قولا لعالم في قضية معينة، وليس لهذا العالم في هذه الأحداث إلا كلمة أو كلمتين، مع أن هذه الأحداث متكررة طيلة حياة الشيخ، ثم لا نجد الشيخَ ذكر هذا القول إلا مرة أو مرتين، ومنهجه المستمر طيلة عمره لم يتطرق له بل يخالفه في تأصيله العام.

ثم يأتي طالب العلم هذا، فيتكلم في تحرير هذه المسألة في شهر واحد ما لم يتكلمه الشيخ طيلة حياته!!!

فهل هذا وافق الشيخ أم خالفه ؟!

خالفه بلا شك ..

فمصيبتنا في هذا العصر أن طالب العلم يصبح ويمسي ويصول ويجول ويوالي ويعادي على قضية معينة حتى يصبح معروفا مشهورا بها، وهذه ليست طريقة أهل العلم والفقهاء، لذلك هؤلاء يفرقون ولا يجمعون، ولو فقهوا لكان السكوت في كثير من الأحيان أحب إليهم، فقد سكت من هو خير منهم وأعلم في قضايا هي أكبر وأجل مما هم فيه.

وقد قال بعض السلف: إن هذا العلم عند بعض طلابه لهوٌ يلتهون به، وليس من عدة الآخرة في شيء.

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

د. حسن صنيدح العجمي

يوم الأربعاء ١١ربيع الأول ١٤٤٥هـ

الموافق: ٢٥/ ١٠/ ٢٠٢٣م